(١٩٤٩) ، والمجتمع محكوم بصراع بين « الشعب » وسلطة تجنح إلى السقوط . وعلى ضفاف المجتمع وفي قلب طبقه منه يقف الفلسطيني « جميل فران » . في البدء يقف جميل على تخوم الدائرة ، وبعد حين ينقله وضعه الاجتماعي « أستاذ جامعة » إلى مدار « طبقة جديدة » ، ينسج معها العلاقات ، ويمارس الحب ، ويعيش تجربة الحب والتحدي وينتصر ....

تسير الرواية في حمولتها الثقافية الخاصة ، وتتطور في قدر الفلسطيني الباحث عن « مكان تحت الشمس » وفي ديالكتيك الأنا والثقافة المغتربة يحاور المقال الروائي العالم : يساءل المكان والزمان ، ويرسم رجل المدينة ورجل البادية ، يحاور « خلاصة القوم » ورعاع الشارع ، يقابل الغرب بالشرق ، ويناظر بين ثقافتين « لا تلتقيان » ، ويحاول مناجاة الكون والتاريخ ورصد « الكون الانساني » الصغير .

تفرض كثافة الرواية « صيادون ..... » قراءة موائمة لها ، تضاعف القراءة وتدفعها إلى قرار النص لتعرف ما يقول ، تدفعها من الصريح إلى المضمر ، ومن الظاهر إلى القاع . وقد تضاعف القراءة من جديد كي تكون قادرة على تملك كل مستويات الرواية . إن قراءة الصريح لا تظهر إلا العارض ، ولا تجلي إلا حركة الحدث الروائي في تطوره الخطي : « جميل فران » مثقف فلسطيني غادر أرضه بعد أن دفن فيها الانسان الذي أحب « ليلى » ، وجاء إلى العراق ليعمل أستاذ جامعة حيث التقى بـ « سلافة » العراقية وأحبها ، ورغم التحديات والفروق الاجتماعية والدينية فـان جميل يحظى بـ « سلافة » التي تعوضه عن حبه المفقود وتشكل امتداداً له .

لا تقول هذه القراءة شيئا ، لأن قراءة المقال الروائي لا تبدأ من الفعل الروائي بل من الشكل الأيدولوجي الذي يحكم هذا الفعل في حركته ودلالته وتكوينه الفني ، أو بمعنى آخر : تحت أي شكل أيدولوجي قام الفعل الروائي في فنيته ، وما هو أثر هذا الشكل على التطور البنياني العام للرواية ؟. لا يفصح هذا الشكل الأيدولوجي عن ذاته في مقال الرواية المباشر بل في الآثار الأيدولوجية التي تنتجها الرواية وتقدمها كأثر أيدولوجي إيجابي .

إذا وضعنا الصريح جانبا ، وحاولنا قراءة رواية جبرا في مستوياتها المتعددة ، فـاننا نبدأ من حيث يبدأ الكاتب . والكاتب يبدأ من مقولة الأنا ، من « جميل فران » . إن « جميل » في القراءة الروائية لا يتقدم « إنسانا » أو « ذاتا » أو « فلسطينيا » فحسب بل يتقدم أيضا كعلاقة أيدولوجية ـ فنية . وهذا الانسان ـ العلاقة لا يحمل في حركته أيدولوجيا واحدة بل سلسلة من الأيدولوجيات : أيدولوجيا الأنا (الذات فوق التحديد الاجتماعي) ، أيدولوجيا دينية ، أيدولوجيا أوربية كولونيالية ، وهذه الأيدولوجيات الثلاث تترابط وتتداخل في إطار تصور مثالي للعالم ، أي أن تصور البطل للعالم هو تصور مثالي نو ثلاث مركبات متداخلة :

ـ أيدولوجيا الأنا تحدد حركة « جميل » في المجتمع وتقدمه ونجاحه إنطلاقا من جوهر البطل هذا وسماته الخاصة .

ـ الأيدولوجيا الدينية تحكم حركة البطل كرسول أخلاقي أو كنبي صغير « يثير أرواح الآخرين » : عدنان ، حسين ، توفيق ... » ، وينقذ « سلافة » من سجنها واضطهادها .